سمات الديمقراطية الأمريكية

بقلم الأستاذ سلامه موسى

تنفرد الولايات المتحدة لأمريكية انفرادا فذا بين لأمم الديمقراطية لجملة اعتبارات . فهى أكبرهن عددا فى السكان الذين يبلغون ١٣٦ مليونا ، وهى أكثرهن ثروة سواء فى المعادن أو فى الحاصلات الزراعية كما أنها تملك من الذهب أكثر مما يملكه سائر العالم كله. ثم هى مع كل ذلك أمعن الأمم تقدما فى الرقى الثقافى والآلى . فانها تحفل بالمدارس والجامعات كما أن البيت الامريكى أكثر البيوت فى العالم استخداما للآلات .

وهـذا الرقى الظاهر تختفى تحته ألوان من الرقى الباطن هى موضوع هذه الكلمة . فان فى الديمقراطية الأمريكية من السمات ما لا نجد له ما يضارعه فى الأمم الديمقراطية الأخرى بل نحن حين نقابل ونوازن لا نكاد نسمى الأمم الأخرى " ديمقراطيـة " لأن المعنى الذى تعنيه هذه اللفظة لا يزال أمنية مرجوة أكثر مما هو حقيقة واقعة عند هذه الأمم ولاتزل آثار الأتوقراطية باقية فيها إما فى تقاليد الحكم وإما فى نظام المجتمع وإما فى متن الدستور نفسه ، وربما كانت سويسرا والأقطار الاسكندناوية أقرب الأمم الى الولايات المتحدة الأمريكية فى النزعة الديمقراطية . ولكنها مع ذلك لا تبلغ المستوى الأمريكى .

وأول ما يلفت النظر فى الولايات المتحدة أنها جمعت بين الاستقلال والاتحاد . فانها ٤٨ دولة مستقلة قد اجتمعن فى اتحاد عام مقره واشنطون ويمثله البرلمان بمجلسيه والرئيس والمحكمة العليا . ولكن كل دولة مع ذلك مستقلة فى هذا الاتحاد تسن لنفسها قوانينها وتنقح دستورها . واستقلالها يبدو فى كثير من القوانين التى تنفرد بها دون سائرالولايات . فهنا ولاية تسن قانونا للطلاق يؤدى الى انفصال الزوجين بأيسر الأسباب . وأخرى تسن قانونا آخر يكاد يجعل الطلاق مستحيلا لأى سبب . وهنا ولاية قد ارتقت فى وسائل التعليم حتى صار التعليم الجامعى فيها عاما فى حين أن أخرى لا تزال متخلفة فى التعليم الثانوى .

وهذا الاستقلال مع الاتحاد هو الأمل الذى تنشده الدول الأوربية فى الوقت الحاضر أى إيجاد " ولايات متحدة أوربية " تجمع نحو ٢٥ أو ٣٠ دولة تنزل كل منها عن حقوقها فى التسلح وسك النقود وفرض المكوس الجمركيـة وتستقل كل منهـا بقوانينها الداخلية . و"المحكمة العليا" فى واشنطون تفصل فى الخلافات التى تنشأ عندهن من الاصطدام بين استقلال الولاية وبين الاتحاد العام وكثيرا ما تحكم للأولى على الثانى .

ولو أن مثل هذا النظام وجد فى أوربا لما كابدت الدول الأوربية أهوال هذه الحرب. وأمارات الزمن الحاضر وطوالع المستقبل القريب كلتاهما تدل على أن الوحدة السياسية لن

تكون القطر الصغير وانما ستكون القارة الكبيرة . وان الاتحاد سيأخذ مكان الانفصال . وهذا النظام الاتحادى الأمريكى نجد له شبيها فى سويسرا ، حتى أن دعاة الاتحاد فى أوربا يذكرون سويسرا كلما فكروا فى هذا التنظيم الجديد. ولكن اتحاد سويسرا هو اتحاد اضطرارى تحتمه عليه جباله وتعدد لغاتها وقلة سكانها . وليس لسويسرا علاقات خارجية مشتبكة وليس لها أسطول بحرى أو جوى كبير . ولذلك يسهل اتحاد ولاياتها الأربع . أما الولايات المتحدة الأمريكية فتبلغ ٤٨ دولة وعلاقاتها الخارجية كبيرة وقواتها الحربية تغرى بالتسلط الامبراطورى . ومع ذلك لم تقع حكومتها قط فى هذا الاغراء .

وهذا الاستقلال الانفرادى والاتحاد الجماعى يخلقان حالة نفسية جديدة فى الشعب هى الاطمئنان الى السلم بل يخلقان عقلية تميل إلى السلم والإقلال من النفقات الحربية وتوفير المال للرقى الاجتماعى والاقتصادى . كما يخلقان عقلية تنزع إلى التسامح والتغاضى عن الخلافات المذهبية وكل هذه الميزات هى بعض سمات الديمقراطية الأمريكية وهى تعود فى الأصل الى هذا الاتحاد العام القائم على الاستقلال .

ولنظر فى ميزة التسامح هذه . فان حكومة الولايات بل حكوماتها تجهل الفروق الدينية والمذهبية والسلالية . وهى بوتقة الأمم ينزل فيها — أو كان ينزل فيها الى وقت قريب — الدنمركى والروسى واليابانى والانجليزى والسورى . وهؤلاء مع اختلاف أديانهم ومذاهبهم وسلالاتهم يجدون المساواة التامة ليس فقط إزاء القانون بل أمام الشعب . ويعزو بعضهم هذا التسامح الى أن المهاجرين الأولين الى أمريكا فى القرن السادس عشر قد ألجأهم الى الفرار من أوربا اضطهادات دينية فاتعظوا واعتبروا ونصوا على المساواة عندما بلغوا أرض الولايات المتحدة واستوطنوها وليس شك فى أنه كان لهذه الاضطهادات الأوربية بين الكاثوليك والبروتستانت أثر وعظى فى المهاجرين الى القارة الأمريكية . ولكن يجب ألا ننسى أن نظام الاتحاد نفسه فى الولايات المتحدة يؤدى الى التسامح . لأن استقلال الولاية مع الاتحاد مع ٤٧ ولاية أخرى يجعل الاضطهاد فى إحدى الولايات معدوم القيمة إذ يمكن للمضطهدين والمكروبين أن يلجأوا الى أية ولاية أخرى ويمكننا أن نتأمل أوربا فى أحقادها وإحنها المذهبية فى الوقت الحاضر وهى نحو ٢٥ دولة مستقلة، ثم نتخيلها وهى "ولايات متحدة" . فان مثل هذه الإحن والأحقاد تزول قيمتها فى الاتحاد .

ولكن هذا التسامح يقف عند الزنوج وصحيح أن الدولة تقول بالمساواة التامة بين البيض والسود فى جميع الحقوق والواجبات . بل يمكن الزنجى أن يرشح نفسه لأن يكون رئيس الدولة ولا يجد أمامه أية عقبة من القوانين. ولكن الشعب لا يؤيده . ونحن هنا إزاء عقبة أنثولوجية تعلو على القوانين وتحتاج لاجتيازها الى نفسية جديدة لم تتكون بعد . ومع ذلك يجب ألا ننسى الحرب الأهلية التى أثيرت بين الشماليين والجنوبيين سنة ١٨٦٠ كانت فى بعض وجوهها تعود الى أسباب إنسانية من ناحية تحرير الزنوج والغاء الرق .

وتمتاز الديمقراطية الأمريكية بميزات لا تكاد تعرفها أوربا . فانها وجدت منذ أكثر من ١٦٠ سنة الرتب والأوسمة . ورئيس الدولة هو " مستر " مثل أى عامل أو فاعل . وقد عممت المساواة بين الجنسين حتى يقال إن من يتكسبن من السيدات والأوانس فى المكاتب والمصانع الأعمال الحرة لا يقل عن ١١ مليونا . وقد رفعت شأن العامل الى حد أن بائع اللبن قد يحصل على أربعين جنيها فى الشهر . وحرية الصحافة والخطابة ليس لها نظير فى أى قطر آخر فى العالم ، بل كذلك حرية الثقافة .

وهـذه الحال هى نتيجة الظروف الأولى التى أحاطت بإنشاء الدولة ، فان الذين تولوا إنشاءها كانوا يخشون النزعات الاستعمارية التى كانت تسود أوربا فى ذلك الوقت (حوالى عام ١٧٨٠) فتوقوا جميع الظروف والملابسات الاجتماعية التى يمكن أن تؤدى الى إيجاد طبقة ممتازة تستطيع التسلط والاستئثار بالحكم وحرصوا على تحقيق المساواة .

وهذه النزعات الاستعمارية ليست مما يستهان به ، فان معظم الدول الكبرى فى العالم قد اشتبكت فى حروب عادت بالشقاء على العـالم ، وأحيانا عليهـا هى نفسها ، ولذلك ليس مما يستصغر شأنه أن نعرف مثلا أن الولايات المتحدة لم تشتبك فى حرب نحو مئة سنة (بين عامى ١٨١٧ و ١٩١٧) وأنها قضت نحو ١٥٠ سنة لا تعرف التجنيد الإجبارى ولا تعمل على إيجاد أسطول بحرى يتفق مع عظمتها ، بل أننا حين ننظر فى الحروب التى اشتبكت فيها الولايات المتحدة نجد فيها مغزى رمزيا للعصر الجديد يخالف التقاليد القديمة .

فقد حاربت الولايات المتحدة دولة مكسيكا وانتصرت عليها ولكنها بدلا من أن تطلب منها غرامة حربية أدت لها تعويضا .

وحاربت سنة ١٨١٧ كندا ولكنهـا عقدت صلحا ينص على إيجاد قوة بوليسية فقط ويمنع الدولتين من إقامة حصون أو تأليف جيش عند الحدود .

ودخلت الحرب الكبرى فاشترطت ألا تكون هناك غرامة حربية تفرضها الدول الظافرة على الدول المهزومة ، كما نصت على إيجـاد نظام جديد للعـالم مثلته " عصبـة الأمم " نحو عشرين سنة .

وأخفق هذا النظام لأن الروح الاستعمارى كان متسلطا على الدول الأوربية الكبرى .

فهذه أمثلة تدل على الروح الأمريكى الذى هو ثمرة الاتحـاد بين ٤٨ دولة ، وهو روح يمكن أن يسود أوربا إذا نزلت دولهـا الكبرى عن أنانيتها وجحدت المبادئ الاستعمارية وارتضت المساواة بين جميع البشر .

سلامه موسى